

رستم باشا في لبنان

لاحد فضلاء اللبانيين

هو تلياني الاصل من بيت شريف ولقبه الكونت دوماريني . وقد رأيت في بعض الكتب انه جاء الاستانة العلية طفلاً مع والدته حيث ربي عند رجل من كبار رجال الدولة من اصدقاء عائلته فلما شب دخل في سلك الجيش وشهد حرب القرم ونال فيها رتبة الميرالي ثم انتقل الى الخدمة الملكية فظهرت فيها كفاءته لتناصب السياسة ولم يزل يترقى من هذا الطريق حتى صار سفيراً للدولة في بطرسبرج وهو المنصب الالتي كان فيه قبل تعيينه متصرفاً لجبل لبنان . ويقال انه اعتنق الدين الاسلامي قبل ذلك وسمي مصطفى ثم اضطر ان يتظاهر بالدمصراية لكي لا تعترض روسيا على تعيينه فيها سفيراً

وكان قد توالى على لبنان متصرفان قبل تعيين رستم باشا نذكر اخبارها اجالاً يائناً للحالة الالتي كان عليها الجبل قبل ولايته . اما الاول فهو داود باشا الارمني الاصل الذي تولى بعد وضع النظام الامتيازي لجبل لبنان على اثر مذابح سنة ١٨٦٠ وثانيهما فرقتو باشا الحلبي الذي خلف داود باشا بعد استغفائه

كان داود باشا شديد الميل الى جبين لبنان غيراً على مصلحته حريصاً على حقوقه راعياً في توسيع دائرة حدوده حتى خيل لرجال الدولة العثمانية انه يعني نفسه بالاستقلال فيه . فلما داخلهم هذا الخوف اخذوا يسعون في اسقاطه قبل الاجل المقرر لمدة ولايته وهي عشر سنوات . ولو كان عزلة ممكنة لرجال الدولة بدون اقرار الدول الاوربية الموقعة على نظام الجبل ل فعلوا ولكن احكام النظام قضت بغير ذلك فشرعوا يدبرون له المكاييد حتى يسقطوه باقرار تلك الدول . وبيناهم على ذلك سحت لهم فرصة موافقة فانتهبوها . ذلك ان داود باشا اراد ان يعين قائماً لقضائي كسروان والبثرون اللذين كانا في هذا العهد قضاءً واحداً فأسأل بطريك الطائفة المارونية عن الرجل الذي يريد ان يراه في هذا المنصب فاختر البطريرك يوسف بك كرم صاحب المكاينة العليا والكلمة النافذة في تلك البلاد . ثم اتفق ان تقبل فرنسا الجنرال طلب هذا المنصب قدمه للامير مجيد شهاب ابن الامير قاسم بن الامير بشير الكبير حاكم لبنان المشهور وراح في الطلب فلم يسع المتصرف الا اجابته مراعاة لكلمة فرنسا اذ ذلك في كل ما يتعلق بشؤون لبنان نظراً لتقرب العهد باحتلالها اياه . فاشرك في البطريرك تأثيراً كان يرجى زواله على اثر عتاب واعتذار ولكن فواد باشا كان مترصباً يرصد الفرص

فعظم الامر في عيني البطريرك لعلهم ان الموازنة وهم ثلثا اهل الجبل يفضون لغضب بطريركهم
ويرضون لرضاه وهم لا يسألون لماذا غضب ولماذا رضي . ولم يزل يلقي الدسائس بين هذنا
وذاك حتى اتسع الخرق وصارت فتنة يخشى شرها . ثم اوم يوسف بك كرم بانته من الممكن
تعيينه متصرفاً للجبل او على الاقل الرجوع إلى النظام السابق نظام القائميتين فيكون هو
القائم مقام المسيحي الدائم لامتصرف فوته . فاعتز يوسف بك كرم بوجود فؤاد باشا وقام بثورة
حقيقية نازل فيها عساكر الدولة مراراً ففاز في بعض المواقع فوزاً ميبثاً على قلة رجاله ولكنه
اضطر اخيراً إلى التسليم للدولة فرسا التي اخذت بناصر داود باشا وايدته بنفذهها سواء كان
في داخلية الجبل حيث منعت انتشار الفتنة او في مراكز السياسة الخارجية حيث احبطت
مساعي رجال الدولة . وهكذا انتهت الفتنة ولم يسقط داود باشا . غير ان فؤاد باشا لم يكن
يعرف اليأس من النجاح في اي امر طلبه بل كان ممن يعرفون لكل غاية اربعين طريقاً توصل
اليها . فلما رأى ان الطريق الاول لم ينته به الى الغرض المقصود اخذ يسعى اليه من طريق
آخر فظهر مزيد الاخلاص والولاء لداود باشا اولاً ثم اغراه على ان يطلب ضم بعض
البلاد المجاورة لجبل لبنان إلى متصرفيته وعاهده على تأييد مطالبه وحمله على ان يعرض
استعفاءه من منصبه ان لم يجب طلبه وذلك بعد ان اومهم بان الدولة محتاجة الى بقائه في
لبنان بعد ان اخمد الفتنة فيه فلا يسمها اذ ذاك الا اجابة الطلب . فاعتز داود باشا بكلام
فؤاد باشا وجري على حسب مشورته فقبلت الدولة استعفاءه وهكذا نالت ممتناها من فصله
عن متصرفية لبنان قبل انتضاء مدة العشر السنوات المقررة له . وبعد خروجه من الجبل تولى
مناصب سامية في الاستانة وخدم الدولة خدماً جليلة في بعض المسائل المالية ثم كانت نهايته
انه فر من الاستانة حين وفاة عالي باشا الذي كان سنده الاكبر ولم يرجع اليها بل مات
في ايطاليا سنة ١٨٧٤ م مضوباً عليه من الدولة

اما فرقتو باشا فكان رجلاً ساذجاً غير ممتاز بشيء من صفاته عن عامة الناس وكان
سخيف الرأي قليل الحزم بذي اللسان في اوقات غضبه فكان بالاجمال اشبه بالسوقة منهم
بالامراء غير انه كان سليم الطوية محباً للانصاف كثير الاحسان الى الفقراء . ومن غريب
الاتفاق ان اهل الجبل الذين حرروا داود باشا لذة النوم ثم اقلقوا راحة رسم باشا مدة طويلة
كما سيجي . مما كان عليه هذان الرجلان من الحزم ومضاء المهمة وطول الباع في السياسة لم
ياتوا باقل حركة في مدة ولاية فرقتو باشا . فكانت تلك المدة صفوة وهناك لا يزال اهل
الجبل يذكرونها حتى الآن . ذلك ان فرقتو باشا كان يتعد عن اسباب الخلاف جهده ويفتر

عن موقف الخصام من كل باب ولو اضطر الى النض من كرامته وكان كثيراً ما يحلف بحياة اكبروس الطائفة المارونية فارضام بذلك . واما الدولة فكانت راضية عنه بالطبع لانه لم يكن يعرف لكلمة الاستقلال معنى حتى ولا في المذام . وفوق ذلك كله ساعدته الصدق برجال صادقين من ارباب الوظائف العالية كانوا يخلصون له النصيحة وكان يتبع مشورتهم فعاش المدة التي عاشها في لبنان مستريح الفكر ناعم البال ومات مأسوفاً عليه ودفن فيو باحفال عظيم

ومن اغرب ما يروى عنه من النوادر التي تدل على درجة ادراكه ان مجلس ادارة لبنان كان يبحث يوماً في ما اذا كان يجب تعديل الضرائب في بعض جهات الجبل على وجه معلوم او ابقاؤها على اصلها فقال ثمانية من اعضائه بالتعديل وقال الاربعة الآخرون بابقاها الحالة على ما هي عليه . وكان فرقتو باشا يميل الى هذا الرأي الاخير فلما علم ان الاغلبية على خلاف رأيه وان القرار سيصدر وينفذ حضر الى المجلس وحاول اقناع المخالفين بالعدول عن رأيهم فلم يفلح . فاطرق برهة يتبصر ثم رفع رأسه متبسماً بتسّم الفوز كمن فتح عليه وقال مستهتماً كم سنة مضى على الحالة القديمة قالوا من عهد وجود هذا المجلس اي ثماني سنوات قال ثماني سنوات وهنا اربعة من الاعضاء يقولون ببقائها فيكون المجموع اثني عشر فالاغلبية ضد رأي الثانية الباقين . فضحك القوم حتى الاعضاء الاربعة ثم قال بعضهم اذن بعد اربع سنوات يتم للمجلس اثنا عشرة سنة فنصرف نحن الاثنا عشر عضواً الى بيروتا ويبقى دولة متصرفنا مع السنين حاكماً على لبنان فنجعل وانصرف

وبعد وفاة فرقتو باشا قامت كل دولة من الدول الاوربية الكبرى ترشيح لمنصبه رجلاً ممن ينتمي اليها من رجال الدولة المسيحيين كجاري عادتهم كما خلا مسند التصرفية . وكان الباب العالي اذا عرض تعيين رجل من يرتاح الى تعيينه راي فيه بعض السفراء مغمزاً للظن فيصرف النظر عنه الى ان توفي لذكر رستم باشا فاسكت المعارضين وفازت الدولة بتعيينه فوزاً ميبناً لانه كان اشد الناس اخلاصاً لها واكثرهم تعلقاً بها حتى ان حبه لها لم يتروك في فؤاده محلاً لليل الى سواها بل افقده الميل الطبيعي الذي يشعر به كل انسان الى وطنه الاصيل ووطن آباءه واجدادهم ويقال ان رستم باشا احتال على السفراء حيلة اقمعت كلا منهم بالانتصار له ففاز برضام جميعاً . ونبأ في الكلام على سيرته في لبنان واحوال لبنان في ايامه